



الحلقة (11) الجزء الثالث من مقدمة الفصل الأول
إحياء المعنى يملأ الكلام!!

اللفظ قام من رَقِدْتُهُ .
ربك كريم يَنْفُخُ في ضَوْرَتِهِ وَمَغْنِيَّتِهِ .
يرجع يغنى الطير على فروع الشجر .
ويقول "يارب"،
وتجيله ردّ الدعوة من قلبه الرطّب .

شرح على المتن:

في بداية شرح هذه المقدمة، (الجزء الأول) لعبة الكلام:
سبع جنازات بينا كيف يموت الكلام حين ينفصل عن معناه المفيد
والدافع والمسئول، لكننا أيضا بينا أن تم هذا الانفصال

للشبة معينة، فإنه يعتبر آلية جيدة، تسمح للألفاظ أن تتشابه مع بعضها بسهولة نسبية لتكوين المفاهيم والجمال المفيدة .

أشرت بعد ذلك إلى كيف أن لغة الشارع، وبالذات اللغة الشبابية، وأضاف هنا إليها اللغة المسماة: "البينة" هي - بشكل ما - تجديد للغة ولو بدا عشوائيا، من حيث أن ظهور هذه اللغة هكذا هو نوع من الاحتجاج على موت اللغة داخل الألفاظ المغترية نتيجة للقهر والإفراغ، ثم ألحت كيف أن الشعر هو القادر على إحياء الألفاظ وهي رميم، بإعادة تشكيلها نغما وصورة .

حين يقول المتن هنا: "اللفظ قام من رقدته"، إنما يذكرنا مرة أخرى بأنه مهما ماتت الألفاظ اغترابا فإنها هي هي الأجدية التي يمكن أن تشكل بها اللغة من جديد: شعرا وحفزا وثورة، ربما التعبير الأدق هو "الكمون" انتظارا لبعث ما .

في خيرة العلاج الجمعي، حين أواجه بعض المرضى لأطلب منهم ومنى، ملتزمين بقاعدة: "هنا والآن"، أن ينطق أى منا كلمة واحدة أو اثنين بمعناها الحقيقي مثل 'أنا أقدر' أو 'من حقى أن..'. .. تقابلي مقاومة غريبة لا أتوقعها ولايتصورها أحد، مع أن الكلمات تكون شديدة التداول، شديدة البساطة، فنستنتج أنه يبدو أن التركيز في أن يحضر الشخص (المريض) في "هنا والآن" المعنى الذى يحتويه التعبير المطلوب، هو السبب في هذه الصعوبة .

في الألعاب النفسية أيضا -التي عرضنا منها عينات كثيرة في هذه النشرات اليومية، نلاحظ أنه بمجرد أن تضيف صفة "حقيقي"، أو " بحق وحقيق" يختلف الامر ويحل نبض جديد في الجملة حتى تكتمل اللعبة كاشفة عن المضمون الذى تضمنته الألفاظ "بحق وحقيق"،

هل تذكر مثلا لعبة "أنا باخاف أفرح بحق وحقيق، لحسن"، بل لعلنا لا نذهب بعيدا حين نتذكر آخر لعبة التي ما زلنا نناقشها هذه الأيام، ونضها: ياااااه، دى طلعت صعبة بشااااكل، ولكن..."، وقد أوضحنا كيف أنه ليس من الضروري أن نحدد ما هي التي طلعت صعبة، لكن، ما إن ننتقل لفظ "دى..." في هذا السياق حتى تدب فيه الحياة، فيجرر ما تيسر له أن يجرر من مضمون حتى لو لم نتعرف عليه تحديدا، وهكذا .

في موقف محدد أذكره كمثال، كان شديد الصدق والعنف والدلالة، كانت إحدى الصديقات المريضات تستنقذ في مأزق علاجي بالله، ولكن تصيح بشكل روتيني فاتر، قائلة: 'يارب' وإذا بمساعدي ينبهها (وهو شاب يحاول جامدا أن يعيش ويستمر محتفظا بالمعنى) أنها لا تعنى ما تقول، وأنها لو كانت تعنيه لأحست بنذبات اللفظ تخرج من تحت إظفر إصبع قدمها، لا حظت كيف ساعد حماس مساعدي وتلقائيته في أن يستعيد هذا اللفظ "يارب" وهو الذى نقوله في اليوم عشرات المرات دون أن ينبض بحقه، كيف يستعيد نبضه حين يلتحم بالجسد، فينبض بمحتواه الصعب.

أعتقد أن مثل هذا الإحياء له مظاهر كثيرة في كثير من نشاطات الحياة التي تحاول في هذا الاتجاه، مثل الذكر عند بعض الصوفية بتزديد اسم معين، ومثل أداء بعض المغنين لنفس اللفظ وهم ممتثلون به، فيصل إلى المتلقى بما يحمله،

أم كلثوم ومايكل جاكسون:

لا أحسب أن عبقرية غناء أم كلثوم تكمن في جمال صوتها فحسب، بل هي - كما وصلتني بعد رحيلها بالذات - ترتبط بقدرتها الفائقة على أن تعطي لكل لفظ فرصة أن تنبض به حياة جديدة.

ثم أدركت مؤخرا سر شعبية الراحل مايكل جاكسون، حين شاهدته بعد وفاته كما جاء في يومية السبت الماضي، جاكسون لم يتوقف عند ملء اللفظ بمعناه، بل تهادى إلى تحقيق عبقرية تمازج اللفظ مع النغم مع الحركة **جسد "يقول"**، فتكتمل الرسالة وتحرك ما يقابلها في المتلقى فيتصاعد الأداء ويخترق محرّكا الوعي الفردي والجمعي بما هو.

القرآن الكريم بدون تفسير

أحيانا يكون تفسير اللفظ الخاص في سياق خاص مفسداً لعملية الإحياء والتحرك هذه، حين أدركت ذلك، حين كان بعض مرضى يلجأون إلى ما يسمى "العلاج بالقرآن" مغتربين منشقين عادة، إذ غالباً ما يقوم المعالج بالقرآن هو، وليس المريض، بقراءة بعض آيات القرآن الكريم معتقداً أن هذه الآلية أو الآيات تعالج ذلك بالذات، وهكذا، فكنت لا أشجب الفكرة تماماً، بل أحدد شروطاً الخاصة لاحتمال فاعليتها، فألفاظ القرآن الكريم وصفت بأنها يمكن أن تجعل الجبل خاشعاً من خشية الله، فهي - غالباً حتى تؤدي هذا الدور - لا تحتاج تفسيراً بشرياً، وصياً عليها، بقدر ما تتطلب أن ترد في سياق، وجرعة، وحالة من التهيؤ تسمح بأن تحرك وعي المتلقى بما هي، وليس بما تعنيه في المعاجم، أو بما يقوله المفسرون عنها، وبعد أن أذكر مريضى بآيات خشوع الجبل، أوصيه إن أراد الاستعانة بالقرآن الكريم أن يقرأ بنفسه جزءاً محمداً (ربع حزب مثلاً، كل ثلثي يوم) بالترتيب دون انتقاء ودون فهم ودون تفسير، وأنا لا أقصد بذلك مفعولاً سحرانياً خاصاً، لكنني أحاول أن أحول ممارسته الاغترابية المفرطة المستسلمة التابعة عن طريق "وسيط"، إلى فرصة احتمال تواصل مباشر بين نعمته الخاصة، ونعمته "المابعد"، (الغيب) من خلال هذا الوسيط القادر، أعني الألفاظ المقدسة، بفضل نبضها الملتحم بالوعي الكوني: **"ربك كريم ينفخ في صورته ومعنته"** تتلاحم أنغام مستويات مع بعضها بكل هذا الثراء النابض في سياقها الخاص، دون لفظنتها الاغترابية.

ربما هذا التوجه، الذي لم أتبينه إلا مؤخراً، كان وراء ما جاء بالمتن منذ أكثر من ثلاثين عاماً مشيراً إلى أن ما يحيى الألفاظ لتنبض بمعانيها من جديد هو تلك الصحوه/البعث، التي تسمح بالتنغم بين الوعي الذاتي والوعي الكوني إلى وجه

المطلق توجهها إلى وجه الحق تعالى (وليسمه من يشاء ما يشاء)، فتصبح الألفاظ التي كانت قد تحولت بالقهر والإهمال إلى "ظرف رصاص فاضى مصدى ف عليته" تصبح ملتحمة بكل من معناها، في تشكيلها الجديد "ربك كريم ينفخ في صورته ومعنته".

التشكيل الأشمل للوعى الخاص والعام

التأكيد هنا على أن هذا الإحياء ليس عملية عقلنة منفصلة بقدر ما هو أمل في تشكيل تناغمي بين الوعى الذاتى والوعى المطلق أو الوعى الكونى من خلال ألفاظ استعادت حيويتها، هو ما يلحق ذلك من إشارة إلى وسيط آخر، وهو التناغم مع الطبيعة "يرجع يعنى الطير على فروع الشجر"، حين يترسخ الاغتراب حتى تموت الألفاظ أو تكمن هامة، ينفصل الإنسان عن الطبيعة، وحين يعزف اللحن النابض من جديد، يعود الإدراك إلى تلقى الأصوات لغة قادرة جديدة.

قلنا من قبل إن الكلام حين يموت، يصبح مجرد أصوات بلا معنى "مر الهوا صفر كان النعش بيطلع كلام"، فيتم الاغتراب، وتتوقف حركية النمو، هنا انعكست الصورة فأصبحت الأصوات (أصوات الطير) غناء له معنى يروح يندمج في اللحن الأكبر فالأكبر أيضاً، فيتم التواصل بين الوعى الذاتى، ووعى الطبيعة إلى الوعى الكونى، فهو اللحن البعث الجديد "ويقول يارب"،

الرد يأتى من داخلنا دليلاً على عمق التكامل مشيراً إلى بؤرة الوجود المتناغم "وتجيله رد الدعوة من قلبه الرطب" أى أن الرد يأتى ما هو أقرب من حبل الوريد، ممتداً إلى كرسية الذى وسع السموات والأرض سواء بسواء، ولعل هذا ما أعنيه عادة، بتناغم الوعى الذاتى مع الوعى الكونى.

هكذا تعود الألفاظ بكل عنفوانها وقدرتها لتقوم بدورها في الثورة، والتغيير، لتنتقل مسيرة النمو

بعض آليات إحياء الألفاظ في العلاج الجمعى:

في العلاج النفسى الجمعى، وهو موضوع الفصل الثانى في هذا العمل تقريبا، ندرج في إحياء الكلام بشكل غير مقصود مباشرة، لكن هذا هو ما يتم من خلال آليات محددة لا نقصد بها فكرة "إحياء الألفاظ" تحديداً، وإنما يكون ذلك بعض نتائجها الهامة.

ويمكن عرض بعض هذه الآليات في خطوطها العريضة على الوجه التالى:

1. التركيز شبه المطلق على أن يكون التفاعل في "هنا والآن"، وهو الأمر الذى يستتبعه الابتعاد عن التعميم والتبرير، والإقلال من التفسير والتأويل، وفي هذا يمارس المعالج نهياً متصاعداً عن استعمال تعبيرات تبدأ بألفاظ مثل "الواحد...."، "الناس...."، "الإنسان" .. إلخ

2. التنبيه إلى أن النصائح المباشرة ، إلا ما يمكن تطبيقه واختباره في "هنا والآن"، هي أيضا مهرب من احتواء اللفظ لمعناه لصعوبة اختبار تنفيذ فاعليته حالا

3. تحديد أسلوب التخاطب بـ "أنا ...أنت"، يتبعه تلقائيا تحمل مسؤولية الخطاب، والتلقى، فلا تستعمل صفات أو ضمائر الجمع مثل "كلكم، كلنا"، وأيضا لا يستعمل ضمير الغائب (هو، هي، هم) ما أمكن، وقد لاحظنا كيف أن ذلك يستتبعه تضيق مساحة الفائض اللفظي بشكل يجي نبض الألفاظ.

4. الألعاب العلاجية تتطلب كلا من التمثيل بكل معنى الكلمة، كما تسمح بتأليف بقية النص المحذوف .. (إبداعا مباشرا) مع ممارسة مبدأ "أنا "أنت" هنا والآن" في نفس الوقت، وبالتالي تتيح الفرصة لتكامل وسائل التعبير (الفقرة التالية بند 5)

5. استعمال وسائل أخرى للتواصل غير اللفظي (ليس فقط اللغة الإشارية، التي هي نوع آخر من الرموز) بما في ذلك لغة الجسد، ولغة العيون (أنظر الفصل الثانی) وتعبيرات الوجه ...إلخ، سواء في الألعاب أو غير الألعاب وهذا لا يدل على الاستغناء عن الألفاظ بل قد يكتشف المريض من خلاله إلى أي مدى كان مبتعدا بألفاظه عن ذاته، أو جسده، أو بقية وجوده، وقد يتم ذلك في نوع من النفسية: الصامتة، أو الناطقة .

6. استعمال الاحتمال العكسي للألفاظ والجملة، بتدريب وتمثيل أيضا، وهو وسيلة يتحدد بها كل من الأصل وعكسه، مثلا يقول المريض "أنا مش قادر أعبر"، فنطلب منه أن يقول (ويعتل) "أنا قادر أعبر"، ثم بالتبادل، فنحول بذلك دون تداخل الشكل مع الأرضية (بالتعبير الجشتالتي)، فيمارس المريض، والمعالج، نوعا من التحديد الذي يسمح للفظ أن يستعيد مضمونه الدال

7. الإقلال من استعمال ألفاظ التقريب ما أمكن ذلك (مثل "تقريبا"، "نص نص" "مش قوى"، "يعنى... إلخ)

8. الإقلال من استعمال تعبيرات التأجيل مثل "إن شاء الله" (بالمعنى الهروبي)، "حاحاول"، .. إلخ

9. تجنب استعمال الحكم والأمثال ما أمكن ذلك منعا للاستدراج إلى التعميم والإفراط في التجريد

10. التعامل مع الأسئلة باعتبارها مشروع إجابات: يُطلب أحيانا من المريض أن يقلب سؤاله إلى جملة إخبارية برفع علامة الاستفهام، أو يطلب منه أن يجيب هو أولا على سؤاله إجابة محتملة، أو أن يقول مايتصور ان المسئول (معالج أو زميل مريض) سوف يجيبه به

إمراضية الإفراط بفرط تحميل اللفظ معناه

"برغم الحرص الشديد على أن يحتوي اللفظ معناه، فإننا أشرنا قبل حلقتين، وفي مقدمة هذه الحلقة، كيف أن ذلك هو

عبء شديد إذا ما بولغ فيه، وقد لاحظت في حالات الفصام، خاصة في نوع الفصام المبتدئ، وأيضاً في بعض حالات الاكتئاب أن المريض يشعر فجأة أنه ينبغي عليه أن يعي ش كل لفظ ينطقه بحقه تماماً، أى أن يكون اللفظ هو معناه بالضبط وكما ينبغي، فإذا تصورنا أن الجمل تتكون من وحدات متتالية مثل السلسلة المترابطة، فإن الأسهل أن تكون حلقات السلسلة مرنة وخفيفة حتى يتم الترابط والتسلسل بما يحقق تماسكها فوظيفتها الأشمل فالأشمل، فإذا تصورنا أن المبالغة المرضية في أن تكون كل وحدة (حلقة) مليئة ثقيلة بما تحويه من مضمون، فإن التسلسل قد ينقطع، وقد فسرت بذلك بعض ما ينتهي إليه المريض مما نسميه "فقد الترابط" incoherence ، الذى هو بهذا التفسير ليس نتيجة أن الألفاظ صارت بلا معنى، ولكنه نتيجة الألفاظ امتلأت بمضامينها مستقلة مثقلة حتى عجزت أن ترتبط مع ما قبلها وما بعدها.

الألفاظ الثورة:

حين تبعث الألفاظ من جديد، وتبئض بمضمونها، وتحفز إلى غايتها، تصبح ثورة في ذاتها، ولعل هذا بعض ما كان يعنيه أدونيس وهو يميز بين شعر الثورة (الشعر التجريضى)، وبين الشعر الثورة، الذى هو تشكيل مغير يجيى اللغة، والمتن التالى (نهاية المقدمة) يشير إلى كل من هذا وذاك معا:

ألفاظ بتهز الكون،
ويتضرب فى الملبان،
وتغير طعم الضحكة،
وتشع النور ما الضلمة،
ويتفضع كذب الشاكت،
ويتفقس كل جبان.

استشهادان ختاميان

الألفاظ التى تحتوى معناها، فيكون لها كل هذا النبض، وكل هذا الإحياء، ليست هى الألفاظ الجميلة، أو الرنانة أو الجذلة، بل هى "أى لفظ كان"، حالة كونه ينبض بمعناه سلسا منسابا

وفيما بلى مقتطفان يثبتان ذلك بشكل أو بآخر:

الأول: من أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ (1994)،
وقيامى بنقدها (يجيى الرخاوى سنة 2006)

والثانى: من قصيدة باكرة لى فى ديوان "البيت الزجاجى
والثعبان" (1983) استلهمتها من السعى بين الصفا والمروة،
ذات عمرة. (قبل اصداء محفوظ بعشر سنوات)

المقتطف الأول:

الصدى رقم 78 من أصداء السيرة، (مفوظ سنة 1994)

78 - البلاغة

قال الأستاذ " البلاغة سحر" فآمنا على قوله ورحنا نستيق
فى ضرب الأمثال. ثم سرح بي الخيال إلى ماض بعيد يهيم فى السذاجة.
تذكرت كلمات بسيطة لا وزن لها فى ذاتها مثل: أنت.. فىم تفكر

...؟ طيب، يا لك من مكرر... ولكن لسحرها الغريب الغامض
جن أناس،.. وتمثل آخرون بسعادة لا توصف،..

النقد: (يحيى الرخاوي: أصداء الأصداء)

على صغر هذه الفقرة، فإنها تطرحنا أمام قضية نقدية لأعمال محفوظة، أنا لست متأكدا من أنها نالت حقها من الدراسة، وهي قضية اللغة، وإن كنت قد قرأت أكثر عن علاقة يحيى حقي باللغة، مبدعا، وإلى درجة أقل ناقدا، فهنا ينبغي نحفظ إلى نوع من البلاغة تستأهل الوقوف عندها، وأنها ليست أبدا، ولا أصلا ذلك البريق الذي ينبعث من ظاهر الألفاظ أو زينة الأسلوب، وليست هي أيضا: الحكم الرصينة المختصرة التي تنطلق من مثل أو بيت شعر، بل إن الحديث بالأمثال والاستشهاد بالشعر قد يصبح ضد البلاغة بالمعنى الذي تتناوله هذه الفقرة، وربما بالمعنى الذي قال فيه صلاح عبد الصبور "يأتي من بعدى من لا يتحدث بالأمثال"، أما البلاغة التي يقدمها لنا هنا محفوظة فهي أن يحمل اللفظ - أي لفظ - معناه تماما، فيصبح سحرا قادرا أن يتمثل به الناس في سعادة لا توصف، وأن يجن في صحنه آخرون.

أية ألفاظ هذه التي تسكر وتجن؟ ألفاظ غاية في السذاجة، هي في ذاتها كأصوات - أبعد ما تكون عن البلاغة مثل "أنت" هكذا فقط: "أنت"، أو "فيم تفكر"؟ نعم "فيم تفكر" أو "طيب" أكرر: إنه لفظ "طيب" ثم "يا لك من مكرر"، أعنى "يا لك من مكرر"،

هل أدعوك - عزيزي القاريء - أن تتوقف عند هذه الألفاظ فتكررها أنت للمرة الثالثة بصوت مرتفع، ثم تترك كل لفظ (أو تعبير) منها يرن في وعيك شخصيا دون محاولة أن تكمل، ودون محاولة أن تتذكر حوله أو به أو منه شيئا، إذا فعلت ذلك "هكذا"، فسوف تعرف علاقة محفوظة باللغة، وربما تتصالح عليها، وربما.....

المقتطف الثاني:

من قصيدة "أخبار المسعى السبعة"

ديوان: البيت الزجاجي والثعبان (سنة 1983)

وتقول الناس الأنهار

للناس التيار:

.....

.....

قال النهر السادس:

لو أن السعى تناغم بعد السعى إلى السعى

لرجعنا أظهز من طفل لم يولد بعد

لا نتكأثر بالعدة والعد

ولعاد المعنى

يملا وجه الكلمة

يهتز الكون:

لو يعني القائل "أهلاً"

أن: "أهلاً"